جامعة محمد خيضر - الوادي

ه1442 / 1441
م2021 / 2020

ثالثة ليسانس - لسانيات عامة.

السداسي الخامس - مقياس: نظرية النظم. الأستاذ: العزني طريلي

المحاضرة الأولى:

فكرة النظم في مباحث النقاد قبل الإمام الجرجاني

تكلّم العرب اللغة العربية في الجاهلية سليقة، وكانت قضاياهم عالية وتجلّى النقد عندهم في تمييز أديب عن آخر أو شاعر عن آخر بأحكام متباينة تفتقر إلى التأسيس أكثر.

وفي القرون الإسلامية الأربعة والخمسة الأولى ظهرت حركة نقدية متطورة حيث نتج عن الجدل الكبير الذي وقع بين النقاد في قضية اللفظ والمعنى تبلور نظرية النظم لاحقا، وإن كان الذين قد سبقهم الجرجاني في صناعة المصطلح "النظم" قد لامسوا حقيقته ومعناه في كلامهم النقدي البلاغي، وهذا الأمر يوضح قضية هامة جدّا قد تغترق الدارس في هذا المجال، ألا وهي أنّ جهود النقّاد العرب الأول السابقين للجرجاني تعتبر المنطلقات والأسس التي قام عليها صرح نظرية النظم الجرجانية، ومن ثمّة فالإشكال المطروح هو ما مظاهر النظم في كلام النقاد العرب الذين خلوا قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني؟

(1) - تعريف النقد:

أ- لغة: قال ابن فارس - رحمه الله:

« [نقد] النون والقاف والدال أصل صحيح يدلّ على إبراز شيء وبروزه. من ذلك النقد في الحافر، وهو تقشّره. حافر نقِد متقشّر. والنقد في الضرس: تكسّره، وذلك يكشف ليطه عنه.

ومن الباب: نَقَدْتُ الدّراهم، وذلك أن يكشف عن حاله في جودته أو غيرذلك. ودرهم نَقْد: وازن جيّد، كأنّه قد كُشِف عن حاله فعُلِم ...

وتقول العرب: ما زال فلانٌ ينقُدُ الشيءَ: إذا لم يَزَلْ ينظر إليه ...»[1]

---

(1)- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت لبنان، (د ط)، (د ت)، ج5، ص468.

(1)

ب - اصطلاحا:

النقد هو تمحيص العمل الأدبي بشكل متكامل حال الانتهاء من كتابته؛ إذ يتم تقدير المتن الأدبي تقديرًا صحيحًا يكشف مواطن الجودة والرداءة فيه، ويبين درجته وقيمته، ومن ثم الحكم عليه بمعايير معينة، وتصنيفه مع ما يشابهه منزلة.(1)

أما كلمة "النقاد" فهي جمع تكسير يفيد الكثرة على وزن فُعّال، واحده ناقد والناقد هو شخص ذو خبرة ودراية كافية وثقافة عالية في المجتمع بحيث يستطيع تحليل وتفسير الأشكال أو الأعمال الفنية المنتجة من قبل المبدعين من حوله بالصورة الصحيحة.(2)

ومفهوم الناقد معروف عند القدماء على اختلاف ثقافاتهم، بل إن روح النقد أسبق وجودًا من الأعمال الفنية الأدبية الإبداعية.

(ج) - النقاد العرب الذين لامسوا النظم في حقيقته ومعناه قبل الجرجاني:

لقد أسلفنا الذكر حول نظرية النظم الجرجانية، فهي وإن نسبت إلى عبد القاهر الجرجاني (471/474هـ) إلا أن الحاذق والمنصف في مجال النقد والبلاغة يدرك تمامًا أن الأمر مظهر من مظاهر تطور النقد الأدبي عند العرب، وما كان هذا شأنه فرين الصعوبة أن نجازف ونحصر النظرية في شخصية واحدة، فهو نتاج أمة من الناس جاءت أعمالها متسلسلة بمثل ما جاء به عبد القاهر فيها الحلقة الأهم والأبرز.

وهنا تعرض أعمال بعض من تقدم الجرجاني في التوطئة والتمهيد للنظرية:

(أ) - بشر بن المعتمر(3): إن بشر بن المعتمر قد تحدث عن علاقة اللفظ بالمعنى

---

(1) - تعريف النقد، د. بليل عبد الكريم، 2012/4/2. تحت الموقع: www.alukah.net

(2) - مفهوم الناقد، كاظم نوير كاظم الزبيدي، مقال: شبكة جامعة بابل. uobabylon.edu.iqo

(3) - هو بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي، أبو سهل: فقيه معتزلي مناظر، من أهل الكوفة. قال الشريف المرتضى: لا يقال: إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه». تنسب إليه الطائفة البشرية منهم. له مصنفات في الاعتزال منها قصيدة في أربعين ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين له. ومات ببغداد سنة (210هـ)، اشتهر بالصحيفة. صحيفة بشر بن المعتمر. وانظر: الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، أيار/مايو 2002م، 2/55.

حيث قال في صحيفته :

« وإياك والتوعر، التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومتى أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويوجعهما »[1].

ويستأنف : « وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها، وفي نصابها، ولم تصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكره هنا على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون »[2].

إن الرأي إلى ما جاء به بشر بن المعتمر يدرك بأنه يدور حول علاقة اللفظ بالمعنى، فهو يوجه في سالف كلامه المتكلم بأن يبتعد عن التوعر « الوحشي من الكلام » الذي يسلم إلى التعقيد، ويبحث عن الألفاظ الكريمة للمعاني الكريمة، وفي قوله بالحديث عن قرض الشعر، فيرى أنه يجب على الشاعر أن يكون طبعيا مبتعدا عن الصنعة في كلامه بمعنى أن يضع الكلام في مواضعه، وهذا كله إشارة إلى مصطلح النظم الذي لم يصرح به بشر.

(ب) - الجاحظ[3] :

فرق الجاحظ بين نظم الكلام ونظم القرآن، وهو بدوره لم يشر إلى مصطلح النظم كسابقيه، وإنما أشار إلى الاتي :

---

(1)، (2) - انظر : البيان والتبيين، الجاحظ، تح : عبد السلام هارون، طبعة الخانجي، 1/41.

(3) - هو عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ من أهل البصرة، أحد شيوخ المعتزلة، له كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان ... توفي في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين، وقد جاوز التسعين. وانظر: بغية الوعاة، السيوطي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1399هـ/1979م، 2/ 288.

وقد كان بحرا من بحور الأدب، كثير التصنيف، فصيحا بارعا متفننا وكتبه فوق الثلاثمائة وقال الخطيب : « المصنف الحسن الكلام، البديع التصانيف، كان من أهل البصرة، وأحد شيوخ المعتزلة وقد قدم بغداد فأقام بها مدة ... وكان تلميذ أبي إسحاق النظام ...

=

وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيُعلَم بذلك أنه أُفرِغ إفراغًا جيدًا، و سُبِك سبكا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري على الإنسان ...

وقد ذكر الجاحظ مصطلحات موازية للنظم من مثل: التلاحم، الإفراغ، السبك. كما لا يخفى على باحث أنه تحدّث عن اللفظة المفردة واشترط فيها شروطها هي: متضمنة في قوله: « ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه متخيرا في جنسه، وكان سليما من الفضول بريئا من التعقيد حبّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشّت إليه الأسماع وارتاحت إليه القلوب وخفّ على ألسن الرواة.

إنّ الجاحظ الناقد البيان يجعل تلاحم أجزاء الكلام، وحسن سبكه، وإفراغه واختيار ألفاظه، وبعده عن التعقيد مما يسهّل وصوله إلى النفوس وفهمه، وهنا يبرز اهتمام الجاحظ بحقيقة النظم وقيمته.

= وقال ابن كثير - رحمه الله -: « ... المعروف بالجاحظ المتكلّم المعتزلي، وإليه تنسب الفرقة الجاحظية لجحوظ عينيه، ويُقال له الحدَقي، وكان شنيع المنظر، سيّئ المخبر، ردي الاعتقاد ينسب إلى البدع والضلالات، وربما جانبه بعضهم إلى الانحلال، حتى قيل في المثل: « يا ويح من كفّره الجاحظ »، وكان بارعًا فاضلا، قد أتقن علومًا كثيرة، و صنّف كتبًا جمّة تدلّ على قوة ذهنه، وجودة تصرفه ». وانظر: مناهج اللغويين في تفسير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، محمد السيّد علي محمد، مكتبة دار المنهاج، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط2، 1434هـ، ص 506.

(4)

جامعة محمد خيضر - الوادي
ه1442 - 1441
م2021 - 2020
ثالثة ليسانس - لسانيات عامة
السداسي الخامس - نظرية النظم
الأستاذ: العربي طريلي

المحاضرة الثانية:

فكرة النظم لدى بعض اللغويين قبل الإمام الجرجاني

مع بداية العصر العباسي اختلط العرب بغيرهم من الأمم المجاورة بسبب انتشار الإسلام، وقد نتج عن هذه المخالطة والاحتكاك أن بدأت تتشوه الذوق العربي، ويتفشى اللحن، الأمر الذي أوجب عليهم معالجة الظاهرة، فكان القرآن الكريم أول المصادر والمقاييس التي يرجعون إليها في تقويم لغتهم زيادة على الشعر العربي «ديوان العرب»، فوجدوا في القرآن الكريم دافعا آخر للبحث والتأليف فيه وفي الأدب وأوجه البيان والنظم.

لقد طرق كثير من اللغويين باب النظم قبل الجرجاني (ه474) بأزمنة وأزمنة، ولا يتعارى اثنان في كون نظرية النظم كتب لها الرواج مستوية لعبد القاهر الجرجاني وهو حقيق بها، لكن ما ينبغي إيضاحه هو أن المنصفين من النقاد واللغويين يرون النظرية حصيلة عمل وجهود جماعية كان عبد القاهر الجرجاني بعمله التأسيسي يمثل الحلقة البارزة في ذلك.

لكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أن جل اللغويين الذين تعرضوا للنظم قد كتبوا في حقيقته ومعناه دون التصريح إلا من شاء ربك، وقليل من هم.

وهؤلاء الذين كان لهم الفضل في التمهيد للنظرية أتوا بمصطلحات موازية للنظم ومتباينة فيما بينها، فقد قال بعضهم بالاستقامة، وقال آخرون بحسن التأليف وغيرها. فالمصطلح لم يعرف استقرارا قبل الجرجاني.

(1) تعريف اللغة: أ- لغة:

قال الخليل في مادة لغو: « اللغة واللغات [واللغون]: اختلاف الكلام في معنى واحد. ولغا يلغو [لغوا] يعني: اختلاط الكلام في الباطل، وقول الله عز وجل:

« وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » الفرقان: 72. أي بالباطل. وقوله تعالى: « والغوا فيه » فصلت: 26. يعني رفع الصوت بالكلام ليغلّطوا المسلمين. وفي الحديث: « من قال في الجمعة والإمام يخطب: صه؛ فقد لغا »[1] أي تكلّم »[2].

ب- اصطلاحًا:

اتفق كثير من العلماء كابن سيده وابن منظور، والشريف الجرجاني، والفيروزآبادي، والسيوطي، ومحمد مرتضى الزبيدي، وصديق حسن خان القنوجي، وأعضاء مجمع اللغة العربية بمصر الذين ألفوا المعجم الوسيط، على تعريف ابن جني للغة بأنّها: « أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم »[3]. قال ابن سيده: « وهذا حدّ دائر على محدوده، محيط به، لا يلحقه خلل إذ كلّ صوت يعبر به عن المعنى المتصوّر في النفس لُغة، وكلّ لغة فهي صوت يعبر به عن المعنى المتصور في النفس »[4].

واللغويون جمع مذكر سالم، واحده لُغويّ: وهو اسم منسوب إلى اللغة، تقول: لغويّ من أهل اللغة، العالم باللغة من نحو وصرف وغيره من فنون علم اللغة.

أمّا في العصر الحادث فقد راج مصطلح اللسانيّ لمن كان دارسًا وباحثًا في اللغة[5].

---

(1) - حديث صحيح رواه بنحوه الإمام البخاري وأحمد والشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والبيهقي. نقلا عن: عناية الصحابة باللغة العربية وأثره في الخوض فيها، محمد بن ميدكوت، دار ابن حزم، مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، بيروت - لبنان، ط1، 1436هـ - 2014م، ص 16.

(2) كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، الخليل، ترتيب: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ-2003، 32/4.

(3) - الخصائص، ابن جني، 33/1. نقلا عن: عناية الصحابة باللغة العربية، ص 22.

(4) - المخصص، ابن سيده، 6/1. نقلا عن المرجع السابق.

(5) - انظر: معجم المعاني الجامع. www.almaany.com

(2) - أعلام اللغة الذين عنوا بفكرة النظم قبل الجرجاني:

إنّه من الصعوبة بمكان أن يُعَدَّ عادّ اللغويين الذين كان لهم الأثر البالغ في ظهور نظرية النظم، لكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، ومن هذا الباب علّنا نلقي نظرة تاريخية تصف الموضوع، وتبين تطور الفكرة قبل الجرجاني عبد القاهر.

أ - سيبويه[1] (ت 180/هـ):

تحدث سيبويه عن ائتلاف الكلام، وقد جعل مدار الكلام على تأليف العبارة، وعلاقة الألفاظ بعضها ببعض حيث يرى أنّ وضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن ائتلاف الكلام (النظم)، ووضعها في غير موضعها دليل على فساده؛ حيث قال:

هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة

فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدًا.

وأمّا المحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدًا، وسآتيك أمس.

وأمّا المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبلَ، وشربتُ ماءَ البحر، ونحوه.

وأمّا المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدًا رأيتُ، وكي زيدٌ يأتيك، وأشباه هذا.

وأمّا المحال الكذب فأن تقول: سوف أشربُ ماءَ البحرِ أمسِ.[2]

---

(1) - هو إمام النحاة أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه، ولد بقرية من قرى سيراز يقال لها: البيضاء عام 148هـ على يعقى الأقوال، ثم هاجر منها مع أهله إلى البصرة ونشأ بها، فدرس على حماد ابن سلمة، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأخفش الأكبر، وغيرهم، ولبث فيها حتى عظم شأنه، وجلّ مقامه، ثم ورد بغداد في أيام الرشيد ووزارة يحيى بن خالد البرمكي، فجرت له فيها مناظرة مع الكسائي في المسألة المشهورة بالزنبورية، انتهت بغلبة الكسائي عليه فيها، فخرج إلى فارس مهمومًا، وأقام في شيراز حتى مات فيها سنة 180هـ على المشهور.

قال أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي: حدثنا أحمد قال حدثنا أحمد، قال: حدثنا مروان، قال: حدثنا العباس ابن الفرج الرياشي قال: «كان سيبويه ستيًا على السنّة». وانظر: مناهج اللغويين في تقرير العقيدة محمد الشيخ عليو محمد، ص 167-168. الحاشية والمتن.

(2) - الكتاب، سيبويه، تح وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، 1/ 26-27.

وقال السيرافي - شارح الكتاب - مفسّرا قول سيبويه السابق :
فأما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس ، وسآتيك غدا .
وهذا كما قال ؛ لأنّ ظاهره مستقيم اللفظ ، والإعراب غير دال على كذب قائله ...
وهو قد عنى بالمستقيم اللفظ والإعراب ثم يكون جائزا في كلام العرب دون أن يكون مختارا[1]
ثمّ انتقل إلى المحال فعلّق على قول الماتن : «وأمّا المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غدا ، وسآتيك أمس» إذ قال :
فهذا كلام محال ، ومعنى المحال أنه أحيل عن وجهه المستقيم ، الذي به يُفهَم المعنى إذا تُكلّم به . ونقل الجدل بين اللغويين في تحديد معنى المحال وقصد سيبويه ، لكنه رجّح أن يكون المعنى وقصد سيبويه هو اجتماع المتضادات كالقيام والقعود ، والبياض والسواد ، وقولنا إنّ القعود والقيام اجتماعهما محال ، إنما نريد به الكلام الذي يوجب اجتماعهما محال ، قد أحيل عن وجهه ، ألا ترى أنك تقول لمن تكلّم به : قد أحلتَ في كلامك ، فالكلام هو المحال ، كما أنّ الكلام هو الكذب .[2]
ثمّ انتقل إلى قول الماتن : « وأمّا المستقيم الكذب فقولك : حملتُ الجبلَ ، وشربتُ ماء البحر ، ونحوه» وشرحه بقوله : « وإنما خُصّ «حملتُ الجبلَ ، وشربتُ ماء البحر» بالكذب ؛ لأنّ ظاهرهما يدل على كذب قائلهما ، قبل التصفح والبحث[3] ...
ثمّ أتى على قول سيبويه : « وأمّا المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زيدًا رأيتُ ، وكي زيدٌ يأتيك» فشرحه بقوله : « وإنما قبُح هذا ، لأنّ من حكم "قد" أن يليها الفعل ، ولا يفارقها ؛ لأنها جُعلت مع الفعل بمنزلة الألف واللام مع الاسم ... وكذلك كي جعلت بمعنى "أنْ" أو بمعنى اللام . فلمّا دخلا على الأسماء تركيبا وتشكّلا» من وضع الكلام في غير موضعه .[4]
ثمّ أتى على كلام الماتن شارحا بذكر القسم الأخير من الكلام عنده حيث قال في المحال الكذب والذي مثّل له سيبويه بقوله : «سوف أشرب ماء البحر أمس» فهو محال كذب ؛ فأمّا الاستحالة

---

(1) - شرح كتاب سيبويه ، السيرافي ، تح : أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط1 ، 1429 هـ - 2008 م ، 1 / 186 .
(2) - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(3) - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(4) - انظر : المرجع نفسه ، ص 187 .

فلا اجتماع سوف وأمس فيه، وهما يتنافضان ويتعاقبان، وأمّا الكذب فيه فإنّا لو أزلنا عنه "أمس"، الذي يوجب المناقضة والإحالة لبقي كذباً.[1]

ونقل عبد السلام هارون - محقق كتاب سيبويه - عن الأخفش استدراكاً على سيبويه حيث قال كلاماً مفاده إيضاح أقسام الكلام باعتبار الاستقامة والإحالة عند سيبويه، فهو أقرّ ما سطّره سيبويه وأضاف قسماً آخر - وهي عادته - ألا وهو مستقيم خطأ.

قال أبو الحسن: «ومنه الخطأ ما لا تحمده، نحو قولك: ضرب بني زيدٌ، وأنت تريد: ضربتُ زيداً، وأمّا المحال فهو ما لا يصحّ له معنى، ولا يجوز أن تقول فيه صدق ولا كذب، لأنّه ليس له معنى، ألا ترى أنّك إذا قلت: أتيتُك غداً لم يكن للكلام معنى تقول فيه صدق ولا كذب».[2]

ب- كلثوم بن عمرو العتابي (220هـ):

لقد طرق العتابي فكرة النظم في وقت مبكّر جدّاً - وهو محسوب على أعيان القرن الثالث الهجري، إذ يرى أنّ الألفاظ للمعاني بمثابة الأجساد للأرواح، فينبغي أن توضع موضعها، وإلاّ تغيّر المعنى وساء النظم![3]

ونقل أبو هلال العسكري عن العتابي: «الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنّما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّراً، أو أخّرت منها مقدّماً أفسدت الصورة وغيّرت المعنى، كما لو حُوّل رأس إلى موضع اليد، أو يدٌ إلى موضع رِجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحِلية»![4]

لقد أبدع الرجل في طرح الفكرة بأسلوب زيّنه بتشبيهات أوصل بها إلى الغاية، وأراد الإقناع تعليلا وتمثيلا فكان له الحظّ الوافر من ذلك.

---

(1) - شرح كتاب سيبويه، السيرافي، 1/ 187.

(2) - الكتاب، سيبويه، 1/ 26. الهامش.

(3) - انظر: نظرية النظم تاريخ وتطور، حاتم صالح الضامن، الموسوعة الصغيرة 41، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، أيلول 1979، أ.د.ط. ص 10.

(4) - المرجع نفسه، ص 10 نقلا عن: الصناعتين ص 167.

ومن اللغويين الذين عنوا بفكرة النظم قبل الجرجاني عبد القاهر (ت471هـ) نجد ابن قتيبة (ت276هـ)، وإبراهيم بن المدبّر (ت279هـ)، والمبرّد[1] (ت286هـ)، والطبري ابن جرير المفسّر الكبير (ت310)، والسيرافي أبو سعيد - شارح الكتاب - (ت368هـ)، وأبو هلال العسكري (ت395هـ) صاحب «الصناعتين» وغيرهم خلق كثير[2].

---

(1) - البلاغة عند المبرّد هي حسن النظم، قال: «فحق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها». وانظر: نظرية النظم تاريخ وتطور، حاتم صالح الضامن، ص 13.

(2) - انظر المرجع نفسه، ص 7 - 19.

جامعة محمد لخضر الوادي

- ثالثة لغة

الأستاذ: العربي طريلي

مقياس: نظرية النظم:

المحاضرة الثالثة:

فكرة النظم لدى المتكلمين وعلماء الإعجاز القرآني قبل الجرجاني

إنّ الباحث في كتب العقيدة والفرق الإسلامية يرى أنّ الكلام في العقيدة قد نظم خلال القرون الثلاثة المفضلة، لكنه نظم بشكل غير مؤسّس، ولم تتّضح معالمه في تلك الفترة، وظلّ الكلام في بعض جوانب العقيدة دون البعض، ومضت السنون تتلوها السنون والحال هذه حتّى إذا اجتمعت الأصول التي تكلّم فيها المتكلّمون ولُملِم شتاتها ظهر "علم الكلام" الذي يمثل الطرف المخالف لأهل السنّة في إثبات وتقرير العقائد ابتداء على يد المعتزلة.

(1) - تعريف علم الكلام:

قال ابن خلدون: «هو علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلّة العقلية»[1].

- وعُرّف أيضا بأنه علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام.

وأمّا سبب تسميته بعلم الكلام فذلك راجع لأهمية مسألة الكلام في مباحثه التي وقع فيها نزاع وجدل بين المتكلمين.

والمقصود بمسألة الكلام مسألة خلق القرآن التي تبنتها المعتزلة، ونفوا صفة الكلام عن الله تعالى وأكثروا فيها القيل والقال.

ولا يتوهّم أحد أنّ أهل علم الكلام فرقة من الفرق المخالفة لأهل السنّة كالمعتزلة وغيرها، بل هي الشقّ المضاد لأهل السنّة، باعتمادهم على العقل في تقرير العقائد، فقد يكون المتكلّم معتزليا أو أشعريا

---

(1) - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمان بن خلدون، دار ابن الجوزي - مصر، ط1، 1431هـ، ص 388.

(أ) - تعريف الإعجاز القرآني: لغة: قال الفيروزآبادي في مادة [عجز]:
... والعُجُوزُ بالضمّ الضعيفة ... والتعجيز: التثبيط والنسبة إلى العجز.[1]

وهو الضعف والقصور، ضدّ القدرة، ومنه المعجزة وهي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدّي السالم عن المعارضة.
والإعجاز هو ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولتها على شدة الإنسان واتصال عنايته في ذلك.
والإعجاز القرآني هو إظهار صدق النبي صلى الله عليه وسلم في الرسالة بإظهار عجز الثقلين عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن.

(ب) فكرة النظم وأصحاب الإعجاز القرآني:
لقد كان لقضية إعجاز القرآن الأثر الكبير في بلورة فكرة النظم، وإنّ أوّل ما وصلنا من كلام يتصل بإعجاز القرآن يرجع إلى القرن الثالث الهجري، بعد ازدهار حركة الترجمة والاتصال بالثقافات الأجنبية، ولا سيما اليونانية، فضلا عن ظهور بعض الفرق الكلامية كالمعتزلة والقدرية وغيرهما.

ومن المعتزلة - إبراهيم[2] النظّام وهو متكلّم كان قد ذهب إلى أنّ القرآن معجز بالصّرفة أي أنّ الله عزوجلّ صرف لهم العرب عن معارضة القرآن وإلاّ فهم قادرون على ذلك، فكان لهذا الصرف خارقا للعادة.

---

(1) - القاموس المحيط، الفيروزآبادي مادة (عجز) ص (539-540).

(2) - هو أبو إسحاق إبراهيم النظّام البصري ولد سنة 185هـ، تتلمذ على يد أبي الهذيل العلاّف في الاعتزال، ثم انفرد عنه وكوّن له مذهبا خاصا (النظامية)، وكان أستاذ الجاحظ توفي وهو شاب في نحو السادسة والثلاثين من عمره سنة 231هـ على خلاف في ذلك.
كان ذا مكانة عالية في المذهب الاعتزالي بل قيل: إنه أكبر شخصيات المعتزلة، يقول أحمد أمين: «وقد كان المعتزلة بعده عيالا عليه». قال الجاحظ في الحيوان: «إنه لولا مكان المتكلّمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم =

وقد ألّف في قضية إعجاز القرآن قبل عبد القاهر الجرجاني كثير

= وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة».

وقد كان النظام عقلياً يؤمن بالشكّ والتجربة، أتى بأمور غريبة لم يسبقه إليها أحد مثل: الصّرفة، والطفرة.

فالصرفة على نوعين: الأول: صرفة ينكر أصحابها الإعجاز البلاغي للقرآن، ويميلون إلى أنّ الإعجاز في الإخبار بالغيب، وزعيمها النظام ومِمَّن هو على شاكلته نجد ابن صبيح المردار، وجعفر بن مبشر الثقفي، وجعفر بن حرب الهمداني...

والثاني: صرفة يجمع أصحابها بين الإعجاز البلاغي والعجز العارض (الصرفة) ومن أنصارها الجاحظ والرماني والشريف المرتضى، وابن سنان الخفاجي.

ويلخص الإمام المفسر الكبير القرطبي ذلك فيقول: «واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين: أحدهما أنهم صرفوا عن القدرة عليه ولو تعرضوا له لعجزوا عنه، والثاني أنهم صرفوا عن التعرض له مع كونه في مقدورهم ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه».

ومعتقد أهل السنّة: «القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته». قال ابن تيمية - رحمه الله - والصواب المقطوع به أنّ الخلق كلّهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد صلى الله عليه وسلم نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدّل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وسائر كلام لكلّ من له أدنى تدبّر...

وقد كانت "الطفرة" من غرائبه التي لا حقيقة لها، وبسببها أصبح محلّ سخريّة الناس حيث أنشدوا فيها:

مِمَّا يُقَالُ وَلَا حَقِيقَةَ تحته تحتها تدنو إلى الأفهام

الكسبُ عِندَ الأشعري والحالُ عند البهشميّ وطفرةُ النظّام

والشاهد: «طفرة النظّام». ومضمونها: أنّ الله خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن، من نباتٍ وحيوان وجبال وبحار، ولم يتقدّم خلق آدم على ذريّته غير أنّ الله (أكمن) بعضها في بعض، فالتقدّم والتأخّر إنما يقع في ظهور هذه الموجودات في أماكنها دون حدوثها ووجودها. وقد زعم النظّام ما زعم متأثّراً بأصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة.

(13)

من العلماء لعلّ أشهرهم : الرمّاني[1] (ت386هـ) في «النكت في إعجاز القرآن»، والخطّابي[2] (ت388هـ) في «بيان إعجاز القرآن»، والباقلاني[3] (ت403هـ) في «إعجاز القرآن»، ثمّ توالت المؤلفات في هذا الباب.

---

(1) - هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرمّاني، أصله من سامراء، وولد ببغداد عام (ت296هـ)، ونشأ بها وتعلّم، فأخذ العربية عن ابن دريد، وابن السرّاج، والزجّاج وغيرهم، والكلام والاعتزال عن أبي بكر بن الإخشيد، ولمّا كبر وتقدم في العلوم اتصل بأبي علي الفارسي وصاحبه، فأخذ كلّ منهما ما عند الآخر، ولم يزل الرمّاني ببغداد يصنّف ويؤلّف حتى توفي بها عام (ت384هـ).

لم يبلغ أحد من نحويي المعتزلة في القرن الرابع الهجري ما بلغه أبو الحسن الرمّاني من الاعتزال ودقائق الكلام؛ وذلك لشدة انتصاره للمعتزلة، وكثرة مؤلفاته الاعتزالية، وتفنّنه في فنون من العلوم شتّى، فأحرز بذلك قدح الاعتزال المحلّى، ولم يجاره أحد فضلا عن سبقه. ولذا كان اعتزال ابن جنّي والشريف الرضي قد انحصر في اللغة، وتوجيه القراءات، والتفسير، والأحاديث، والبلاغة، فلرمّاني أضاف إلى ذلك الكلام المجرّد، والمنطق، والفلسفة، فمزج الجميع بالاعتزال، حتى غدا كلامه رمّانيا غامضا لا يُفهم.

من مؤلفاته: صنعة الاستدلال، مقالة المعتزلة، الإرادة، الأسباب، الإمامة ...

(2) - هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب الخطّابي البستي، أبو سليمان الشافعي، ولد ببستة بلدة في رجب الفرد عام (ت319هـ)، ونشأ بها فأخذ عن علماء بلده وأعلامهم، ثم دخل سجستان فنيسابور وأقام بها عامين، أخذ فيها عن أبي العباس الأصم وطبقته، كما زار بخارى، ثم رحل إلى العراق قد دخل بغداد وسمع من إسماعيل الصفا وأبي عمر الزاهد وطبقتهم، ودخل البصرة فسمع من أبي بكر بن داسة العمّار ومن غيره، ثم ذهب إلى الحجاز فأقام بمكّة، وسمع بها من أبي سعيد بن الأعرابي، وبعدها عاد إلى خرسان فحالها، ثم خرج أخيرا إلى بلاد ما وراء النهر، فانتهت الرحلة به إلى مسقط رأسه بستة فتوفي بها عام (ت388هـ) على الأرجح.

وكان إماما علّامة، حافظا محدثا، فقيها لغويا أديبا، شاعرا. من مؤلفاته: معالم السنن، إصلاح غلط المحدثين، غريب الحديث، شرح البخاري.

(3) - هو الإمام العلامة، أوحد المتكلمين، مقدّم الأصوليين، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ابن قاسم، البصري، ثم البغدادي الباقلاني، صاحب التصانيف، وكان يضرب المثل بفطنته وذكائه. سمع أبا بكر أحمد بن جعفر القطيعي، وأبا محمد بن ماسي، وطائفة. وخرّج له أبو الفتح بن أبي الفوارس =

وفي هذه الكتب والرسائل - وغيرها من المؤلفات - التي تكلمت على إعجاز القرآن حديث عن النظم، بيد أنّ هذا الحديث لم يوضح لنا فكرة النظم والغرض منها مثلما فعل عبد القاهر فيما بعد، وإنّما هو ومضات في الطريق سار عليها البلاغيون، فضلا عن أنه ظلّ حديثا يدور - غالبا - في فلك التنظير، من دون أن يتجاوز ذلك إلى التطبيق، فأبو الحسن علي بن عيسى الرمّاني يرى أنّ حسن البيان في الكلام على مراتب، وأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل التنظيم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبّله النفس تقبّل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقّ من المرتبة.

ويرى الخطابي أنّ القرآن «إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصحّ المعاني»، ثم يتحدّث عن القرآن قائلا: «ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه».

والنظم عند الخطابي ليس سهلا ميسورا، وإنما يحتاج إلى ثقافة ومهارة، إذ يقول: «وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكّل بها البيان».

= وكان ثقة إماما بارعا، صنّف في الردّ على الرافضة والمعتزلة، والخوارج والجهمية والكرامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه في مضايق قليلة من نظراته، وقد أخذ علم التنظير عن أصحابه.

وقد ذكره القاضي عياض في "طبقات المالكية" فقال هو الملقّب بسيف السنّة، ولسان الأمة، المتكلّم على لسان أهل الحديث وطريق أبي الحسن، وإليه انتهت رئاسة المالكية في وقته، وكانت له حلقة عظيمة بجامع البصرة.

وله مؤلفات كثيرة منها: كيفية الاستشهاد في الردّ على أهل الجحد والعناد، مناقب الأئمة، الانتصار، التقريب والإرشاد، دقائق الكلام، الملل والنحل...

أمّا الباقلاني فيرى أنّ كتاب الله معجز بالنظم أيضاً. لأنّ نظمه خارج عن وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، إذ يقول: «فأمّا نظم القرآن فليس له مثال يُحتذى عليه ولا إمام يُقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذّ الغريب والشيء القليل العجيب». ويقول أيضاً: «وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حدّ واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف والصرف». وقال أيضاً: «ليس الإعجاز في نفس الحروف وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها».

وكان قبل الثلاثة أديب أهل السنّة الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة[1] الدينوري (276هـ) قد أظهر الاهتمام ببيان الإعجاز القرآني حيث تصدّى للطاعنين في القرآن وأسلوبه والمعترضين عليه وألف في ذلك كتابه "تأويل مُشكل القرآن" حيث قال في مقدمته: «الحمد لله الذي نهج لنا سبيل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب... وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بتجويب النظم عن حيل المتكلّفين، وجعله متلوّاً لا يملّ على طول التلاوة ومسموعاً لا تمجه الآذان وغضّاً لا يخلق على كثرة الردّ وعجيباً لا تنقضي عجائبه، ومفيداً لا تنقطع فوائده، وتسخ به سالف الكتب، وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه» ثم كرّ على أولئك الطاعنين مبيناً وموضحاً حالهم وتأثيرهم على الناس قائلاً: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة، وأبصار عليلة وتظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة وفساد النظم والاختلاف».

---

(1)- ولا يتوهمنّ أحد أنّ ابن قتيبة متكلّم فهو من أهل السنّة بل ممن اشتهر بالاستدلال باللغة العربية في بيان المعتقد الصحيح والردّ على المخالف، وإنما أوردناه هنا لقضية الإعجاز القرآني، وتقدمه على غيره في ذلك.

هذا ما كان من أمر نظرية النظم قبل القرن الخامس الهجري، أو لنقل قبل عبد القاهر الجرجاني، فلم نجد فكرة واضحة عنها إلاّ في كلام القاضي عبد الجبار (ت415هـ) الذي كان أكثر وضوحًا، إذْ رأى أنّ الفصاحة والبلاغة تقومان على ضمّ الكلمات وتقارنها، فقال: «اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضمّ على طريقة مخصوصة، ولابدّ مع الضمّ من أن يكون لكلّ كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إمّا أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها. ولابدّ من هذا الاعتبار في كل كلمة. ثم لابدّ من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنها قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ...».

انتهى.

بعض المراجع:

- مقدمة ابن خلدون - عبد الرحمان بن خلدون.
- مناهج المفسرين في تفسير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، محمد الشيخ علي محمد.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي.
- وبعض المراجع تحت المواقع الإلكترونية التالية:

- www.dorar.net
- libray.islamweeb.net
- wqw eclu.sa
- Vb.tafsir.net. مركز تفسير للدراسات القرآنية
- madrasato mohamed.com

يقول ابن البيساني:

«إني رأيت أنه ما كتب أحدهم في يومه كتاباً إلاّ قال في غده: لو غيّر هذا لكان أحسن ولو زيد ذاك لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك ذاك لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

مقياس: نظرية النظم

المحاضرة الرابعة: نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني

عرف النقد القديم حركة نقدية واسعة انبجست عنها معايير متعددة ... ديبية وقضية. ومن المعايير والقضايا (المصطلحات) النقدية الكثيرة الطبع والصنعة؛ السرقات الأدبية، اللفظ والمعنى وعلى هاته الأخيرة وقع جدل كبير بين النقاد؛ ذلك أنّ القضية لم تعرف استقرارا إلى ظهور مصطلح "النظم" - وهو قديم الصنعة لكنّ استعمال النقاد العرب القدامى له كان بمفاهيم مختلفة، فتارة الاستقامة وتارة السبك وأخرى التلاحم ...

لقد صار مصطلح النظم معيارا من معايير النقد في العصور الإسلامية الأولى وبشكل خاص ما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين. حتى إنّه عرف تطورا كبيرا وصار يشكل نظرية قائمة بذاتها رائدها الإمام عبد القاهر الجرجاني.[1]

أولاً: مفهوم النظم

(أ) - لغة: جاء في معجم العين: «نظم» النَّظْمُ نَظْمُكَ خَرَزًا بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى قِيلَ: لَيْسَ لِأَمْرِهِ نِظَامٌ أَيْ: لَا تَسْتَقِيمُ طَرِيقَتُهُ. وَالنِّظَامُ: كُلُّ خَيْطٍ يُنْظَمُ بِهِ لُؤْلُؤٌ أَوْ غَيْرُهُ فَهُوَ نِظَامٌ.[2]

---

(1) - جاء في سير أعلام النبلاء - الطبقة الرابعة والعشرون - الجرجاني: شيخ العربية أبو بكر، عبد القاهر ابن عبد الرحمان الجرجاني. أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن حسن بن أخت أبي علي الفارسي. وكان شافعيا عالما أشعريا ذا نسك ودين. قال السلفي: كان ورعا قانعا، دخل عليه لصّ، فأخذ ما وجد وهو ينظر، وهو في الصلاة فما قطعها. وكان آية في النحو. له مؤلفات عديدة منها: شرح الإيضاح، المفتاح، العمدة في التصريف، الجمل، العوامل المائة، أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز. توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وقيل سنة أربع وسبعين - رحمه الله.

(2) - كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي - إبراهيم السامرائي، 8/165-166.

وجاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس (نظم): النُّونُ وَالظَّاءُ وَالْمِيمُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَأْلِيفِ شَيْءٍ وَتَأْلِيفِهِ. وَنَظَمْتُ الْخَرَزَ نَظْماً، وَنَظَمْتُ الشِّعْرَ وَغَيْرَهُ. وَالنِّظَامُ: الْخَيْطُ يُجْمَعُ الْخَرَزُ.[1]

وقال الفيروزآبادي: « النَّظْمُ: التَّأْلِيفُ، وَضَمُّ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، وَنَظَمَ اللُّؤْلُؤَ يَنْظِمُهُ نَظْماً وَنِظَاماً، وَنَظَّمَهُ: أَلَّفَهُ، وَجَمَعَهُ فِي سِلْكٍ، فَانْتَظَمَ وَتَنَظَّمَ وَانْتَظَمَهُ بِالرُّمْحِ: اخْتَلَّهُ. وَالنِّظَامُ: كُلُّ خَيْطٍ يُنْظَمُ بِهِ لُؤْلُؤٌ وَنَحْوُهُ. ج: كَكُتُبٍ، وَهِلَالُ الْأَمْرِ: أَنَظِمَّةٌ وَأَنَاظِيمُ وَنُظُمٌ ...»[2]

ب) اصطلاحاً:

قال فخر الدين الرازي: النَّظْمُ هو خلوص الكلام من التعقيد. وأصله من الفصيح وهو اللبن الذي أخذت منه الرغوة.[3]

وقال الجرجاني: النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض.[4]

وقال أيضاً: « واعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها. وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها».[5]

مما سبق في المفهوم اللغوي والاصطلاحي نستخلص ما يلي:

النظم هو ضمّ الكلمات حسب ما يقتضيه الحال وفق التقليد المأثور عن العرب باعتباره المقياس الحقيقي للبلاغة. وهو التأليف في الكلام ليصبح حسناً مقبولاً.

---

(1) - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: محمد عبد السلام هارون، 444/5. (ن،ظ،م).

(2) - القاموس المحيط، الفيروزآبادي، تح: الهوريني، ص 1172، (نظم).

(3) - نظرية النظم، صالح بلعيد ص 161 نقلا عن نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي.

(4) - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 5.

(5) - المرجع نفسه، ص 63، 342.

ثانيا: أسس نظرية النظم:

لقد أفاد الجرجاني من جهود من سبقه من العلماء في رصد خصائص التعبير في الكلام البليغ شعرا ونثرا، وردّ كثيرا منها إلى نظم الجمل وتأليف الكلام، ولا أدلّ على ذلك من أنّ الرجل نفسه على اعتزازه بما يبذل من جهد في وضع نظريته المتكاملة في النظم يعترف بإجماع العلماء قبله على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره.

«وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتنويه بذكره وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ»[1].

لكن يبقى له فيها غير منازع فضل التنظير والتطبيق. فكيف مهّد لهذه النظرية؟ وما الأسس التي قامت عليها؟ تلك النظرية التي ملأ بها عبد القاهر الدنيا وشغل الناس بها بعد قرون غير قليل من الزمن؟

لقد نظر فرأى من العلماء من يرجع الفصاحة إلى اللفظ، ومنهم من يرجعها إلى المعنى فاحتشد للردّ على الفريقين في حماسة وعنف مستخدما كلّ مهارته في الحجاج والمجادلة والقدرة على الإقناع، فحمل على الرادّين الفصاحة إلى تلاؤم الحروف في الألفاظ وردّهم إعجاز القرآن إليه؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى نظم للألفاظ على وجه لا تقصد به الفائدة ثمّ يكون معجزا. يقول:

«وإن تعسّف متعسّف في تلاؤم الحروف فبلغ به أن يكون الأصل في الإعجاز وأخرج سائر ما ذكروه في أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيما كان له القرآن معجزا كان الوجه أن يقال له: إنّك يلزمك على قياس قولك أن تجوّز أن يكون ها هنا نظم للألفاظ وترتيب لا على نسق المعاني ولا على وجه يقصد به الفائدة، ثمّ يكون ذلك معجزا وكفى بهذا فسادا»[2].

---

(1) - دلائل الإعجاز، ص 80.

(2) - المرجع نفسه، ص 60.

ورفض كذلك أن يكون للألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة من حيث أصواتها أو معانيها مدخل في الإعجاز؛ لأن ذلك يفضي إلى أن تكون الألفاظ معجزة بأصل الوضع اللغوي فيبطل إعجاز القرآن.[1]

وحمل كذلك على الرادين المزية إلى المعنى وحده الذين لا يحتفلون إلا بما تدل عليه الألفاظ من حكمة أو معنى غريب أو تشبيه نادر.[2]

ومن تعصبه لأحدهما دون الآخر فلأنك لن تجد لدعوته إلا آذانا صماء وقلوبا غلفا، ويكون في الوقت نفسه قد قضى على ثنائية اللفظ والمعنى؛ ذلك أن العاقل لا ينكر أن يكون للفظ في ذاته مزية كخلوه من الاستكراه وتنافر الحروف والغرابة لكنها المزية التي لا تبلغ به أن يكون مناط الإعجاز وإنما الإعجاز عنده منوط بخصائص في نظم القرآن أو أسلوبه. والأسلوب عنده الضرب من النظم لا يمكن فيها الفصل بين لفظ ومعناه، ولا وصف لأحدهما بالحسن دون الآخر، بل الصورة المجتمعة من ضم الألفاظ بعضها وتعلق بعضها برقاب بعض.[3]

لقد بدأ عبد القاهر - وهو أشعري* - من فكرة عرفت عند الأشاعرة بفكرة الكلام النفسي محاولين بها إثبات أن كلام الله تعالى أزلي قديم في مواجهة المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن. والمعنى القائم في النفس عند هؤلاء هو الذي لا يتغير بتغير العبارات ولا يختلف باختلاف الدلالات، وقد بنى عبد القاهر على هذه الفكرة الركن الأول من أركان نظريته في النظم وهو ما أسماه "ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها" وبهذا يتفاضل البلغاء، يقول:

"ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي ألا

---

(1) - دلائل الإعجاز، ص 60 - 65.

(2) - نفسه، 251 - 252.

(3) - نفسه، 49 - 65.

* - نسبة إلى الأشاعرة - إحدى الفرق الإسلامية المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة، زعيمها أبو الحسن الأشعري - لكنه برأ منها بعد ذلك، زعموا الرد على المعتزلة. لكنهم أعملوا العقل فيما يوقف فيه على النص.

يختلف اثنان في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسّان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر»[1].

ولإيضاحه لهذه الفكرة وإحكامه يميز عبد القاهر بين نظم الحروف ونظم الكلم، فيقول: «ومما يجب إحكامه في هذا الفصل الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلم منظومة، وذلك أن نظم الحروف هو توالي في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها يحقق في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه ما تحراه، وأمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنّك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق»[2]. ومن ثمّ يصبح كل اختيار لتركيب دون تركيب له مغزاه ومدلوله وخواصه التي يفقدها إذا تغيّر الترتيب، فالعلم بمواقع هذه الألفاظ علم بمواقع معانيها في نفس المتكلّم. ومن ثمّ لابدّ أن نلتمس هذه المزية والفضل داخل التركيب على النحو الذي أُريدَ له أن يكون. وقد مضى عبد القاهر يطبّق ذلك في مواضع كثيرة من كتابه.

ولقد قادته فكرة ترتيب الألفاظ حسب ترتيب المعاني في النفس إلى فكرة أخرى تعدّ الأساس (الركن) الثاني من أركان نظريته وهي فكرة "التعلّق النحوي" فالألفاظ لا توضع متجاورة دون تعلّق بعضها ببعض، وإنما يرتبط بعضها ببعض بعلاقات نحوية "لا يتم بدونها كلام ولا يقوم حديث، يقول: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشكّ أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يتعلّق بعضها ببعض، ويُجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس»[3].

---

(1) - دلائل الإعجاز، ص 51.

(2) - المرجع نفسه، 49.

(3) - نفسه، 55.

ويقول مبيناً طرائق التعلق النحوي: « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض. والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف. وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاث أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما.»[1] فاللغة عند عبد القاهر ليست مجموعة متجاورة من الكلمات، بل هي شبكة مترابطة من العلاقات لكل علاقة مقاصدها ودلالتها وخصوصيتها.

وإذا كانت اللفظة لا تكتسب معناها ولا خصوصيتها في التعبير إلا بضمها إلى أخوات لها وتعلق بعضها ببعض وعلى نحو مخصوص؛ فإن ذلك يستتبع أن يكون لاختيار موقع الكلمة دور أساسي فيما لنظم على نظم من مزية وفضل، وهنا نصل إلى الركن الثالث من أركان نظرية النظم وهو "اختيار الموقع" فتعلق الألفاظ بعضها ببعض لا يكفي حتى يختار لكل لفظ موقعه المناسب، ولا تستطيع إزالته عنه أو نقله إلى موقع آخر دون أن تفسد النظم وتذهب بالمزية والقيمة البلاغية. يقول: «وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتقاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، وأن تكون حروف هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، وأن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جارتها وفضل مؤانستها لأخواتها»[2].

(1)- دلائل الإعجاز، ص 4.

(2)- المرجع نفسه، 44.

وهذا تطبيق على ما تقدم:

يقول الصمة القشيري يصف وداعه لأحبابه:

خليليَّ عوِّجا منكما ودَّ عاجعا ... نُحيِّي رسومًا بالقُبَيْبة بلقعا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

كما تجزعُ والحيّان لم يتفرقا؟ ... فكيف إذا داعي التفرق أسمعا؟

تلفتُّ نحو الحيّ حتى وجدتني ... وجعتُ من الإصغاء ليتًا وأخدعا

وانظر إلى كلمة الأخدع فقد جاء حسنة رائقة في هذا النظم* وعلى العكس من ذلك جاءت في بيت أبي تمام:

يا دهرُ قوِّمْ من أخدعيك فقد ... أضججتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ

يقول ابن الأثير:

«ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع والكراهة في النفس أضعاف ما وجد لها من بيت الصمة ابن عبد الله من الروح والخفة والإيناس والبهجة، وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما مثناة في الآخر، وكانت حسنة في حال الإفراد مستكرهة في حال التثنية وإلا فاللفظة واحدة وإنما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى...» المثل السائر

والأمر الذي عليه كثير من البلاغيين هو أن السبب يتعدى كون الأولى مفردة والثانية مثناة بل الموقع وقل إن شئت النظم أولاً وآخرًا.

وإذا كانت الألفاظ ترتب حسب ترتيب المعاني في النفس بحيث يتعلق بعضها ببعض وتقع موقعها الملائم من النظم فلا بدّ من وسيلة لمعرفة الفروق بين نَظْمٍ ونَظْمٍ والتي يقع بها التفاوت ويتكون بها التفاضل، وهذه الوسيلة الكاشفة مردها إلى علم النحو وهو الركن الرابع والأخير من أركان نظرية النظم.

---

* وهذا البحتري يقول:

وإني وإن بلّغتني شرف الغنى ... وأعتقتْ من رقّ المطامع أخدعي

وقد قال بعضهم: فلا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا، والألفاظ إذا اجتزئ قشرا. ولا خير فيما جيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في عبارة حسنة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد.

وقد ختم الجرجاني كلامه في التأسيس لنظرية النظم بركن ذي أهمية بالغة ألا وهو معاني النحو.

ويبدو أن الجرجاني لا يقصد بمعاني النحو الإعراب، بل المعاني التي يعين الإعراب في الوصول إليها، ويتطلب إدراك الغاية فيما يرمي إليه الرجل إمعان النظر، وحسن التدبّر.

فمثلا: الخبر كوظيفة نحوية سواء أتقدّم أم كان على أصله فالإعراب واحد، لكن بإمعان النظر، والتروي تستنبط معاني ومعاني موصلة لقصد المنشئ.

انتهى.

يعض المصادر والمراجع:

١- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني.

٢- سير أعلام النبلاء، الذهبي.

٣- مناهج اللغويين في تقريب العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري محمد الشيخ عليو محمد

٤- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي.

٥- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس.

٦- القاموس المحيط، الفيروزآبادي.

٧- مصطلح النظم في النقد العربي القديم، عبد القادر بقادر، مقال. جامعة قاصدي مرباح. ورقلة

٨- نظرية النظم. قراءة في المفهوم والمتعلقات. م م سعد جمعة صالح. مقال، مجلة ديالى: 2009، ع34.

وبعض المواقع الإلكترونية مثل:

www.alukah.net

جامعة حمة لخضر - الوادي
ثالثة لسانيات عامة
مقياس: نظرية النظم
الأستاذ: العربي لحسيلي

1442 / 1441 هـ
2021 / 2020 م

المحاضرة الخامسة:

النظم وتوخي معاني النحو

النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض.
وهو توخي معاني النحو فيما بين الكلم بحسب الأغراض التي تؤم.
ويمكن أن نطلق عليه الكيفيات النحوية التي تربط بين الكلمات لتعبر عن معان.

معلوم أن عبد القاهر الجرجاني بنى نظريته على أركان أربعة: استهلها بترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها، وثنى بالتعلق النحوي، وثلث باختيار الموقع، وختم الأمر بتوخي معاني النحو، هذا الركن الأخير لا يخفى على الدارس أهميته، فهو قطب رحى النظرية، والذي عليه مدارها.
ولا أدل على ذلك من كلام الجرجاني عبد القاهر نفسه إذ يقول:

« وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وإن بعيننا الذهر جهد أفكارنا حتى تعلم للكلمة المفردة سلكا ينظمها وجا منفردا يجمع شملها ويؤلفها ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها طلبنا ما لا يمكن أن يكون محال دونه »[1].

وقد قال أيضا: « فلست بواجد شيئا يرجع صوابا إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا نرى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدتك يدخل في أصل من أصوله، ويتعمل بباب من أبوابه »[2].

(1) - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 293.
(2) - المصدر نفسه، ص 78.

عُني الرجل عناية بالغة بهذا الركن لأنه ثمرة النظم ومحصوله. ويبادر عبد القاهر فيبيّن في أن يكون مراده بمعاني النحو الإعراب؛ لأنّ الإعراب مشترك بين البلغاء وغيرهم ممّن يجيدون اللغة، وإنما المراد ما وراء الإعراب من معانٍ تقتضيه أن تُستنبط بالفكر ويستعان عليها بالرويّة، وإيضاحًا لهذه المعاني يقول الجرجاني: «وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصور والنقش في ثوب الذي نسج إلى ضرب من التخيير والتدبر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أبلغ أغرب كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيه معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم»[1].

فمعاني النحو عنده معانٍ إضافية تقوم على قوانين النحو وأصوله ولكن تتجاوزها إلى ما فيها من إضافات إلى أصل المعنى وفروق تتفاضل بها الأساليب...

ولقد نزل عبد القاهر جهدا بالغا في تثبيت هذا الركن والإقناع به ولم يكتف بما قرّر بل مضى يردّ شبهات تردّ عليه. ويورد نماذج تطبيقية شديدة التنوع بالغة الدلالة تصل في الوضوح والانكشاف إلى أقصى الغاية حتى إنّ الزيادة عليها ستكون ضربا من التكلف وربما لا يحتاج إليه[2].

ويمثل عبد القاهر يقول إبراهيم بن العباس[3]:

فَلَوْ إِذْ نَبَا دَهْرٌ وَأَنْكَرَنِي صَاحِبٌ ✤ وَسُلِّطَ أَعْدَاءٌ، وَغَابَ نَصِيرُ
تَكُونُ عَنِ الْأَهْوَازِ دَارِي بِنَجْوَةٍ ✤ وَلَكِنَّ مَقَادِيرٌ جَرَتْ وَأُمُورُ
وَإِنِّي لَأَرْجُو بَعْدَ هَذَا مُحَمَّدًا ✤ لِأَفْضَلَ مَا يُرْجَى أَخٌ وَوَزِيرُ

وسمّ عبد القاهر هذه الأبيات بأنّ بها من الحسن والطلاوة ما فيها، وتفقّد السبب فوجده من أجل تقديم الظرف الذي هو "إِذْ نَبَا" على عامله الذي هو "تَكُونُ"، وأنه لم يقل: "فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر"، ثم أن قال: "تكون" ولم يقل: "كان"، ثم أن

---

(1) - دلائل الإعجاز، ص 87-88.

(2) - المرجع نفسه، ص 89-92.

(3) - الفكر اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، أحمد محمود سعيد أبو دنيا.

نكّر الدهر، ولم يقل: فلو إذ نبا الدهرُ، ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعدُ، ثم أن قال: وأنكر صاحب، ولم يقل: أنكرت صاحباً فبنى الفعل لما لم يسم فاعله.

فالمعنى الإجمالي للبيتين هو أن الشاعر كان يتمنى نأي وبعد داره عن الأهوال منطقة الفتن والخطر زمن جفاء الدهر وقسوته عليه، كيف لا وقد التقت فيه واجتمعت عليه المهالك المتنوعة من إنكار وكران الصحبة، وتسلّط الأعداء، وفقد النصير.

فالشاعر عمد على المهارة والصنعة والتي تمثلت في تقديم الظرف "إذ" - هذا الظرف المختص للزمن الفائت - على عامله "كون" فأصل الكلام؛ فلو "كون" عن الأهوال داري بنجوة حين نبوة الدهر، و...

لكن الرجل لما عمل التقديم للحصول على العامل حقق الجودة والجمالية، ثم إنه "نكّر الدهر وجميع ما ساءه فيه: أعداء...

ومعلوم فضل التعريف على التنكير فالأول فيه تشريف وبيان، لكن لما كان المقام يحتاج ذلك أتى به منكّراً ليخدم المعنى ويقيمه أحسن إقامة.

أما بناء الأفعال للمجهول: أُنكر، سُلّط... فهو لما كان مستاء منه لم يرد له ذكراً فحذفه بكيفية نحوية ملائمة تتضح فيها قيمة المعاني النحوية وعدم تحققها للغرض الأساس.

إن الشاعر لما تمنى بعد داره عن الأهوال قصد النجاة استعمل الفعل المضارع إذ "قال "تكون" الدال على الاستمرارية، فهو تفقّد ذلك؛ لأنه يتمنى استمرار نجاة داره ببعدها عن الأهوال، وهذا بخلاف لما لو أنه قال: «كانت داري بنجوة» بدل "تكون" لما حصل له هذا المعنى المناسب لمقامه.

أما قوله «تكون عن الأهوال» فقد وفق فيه لاستعماله الحرف «عن» وهو أحد حروف المعاني، حروف الجر الداخلة على الأسماء، إذ لما أراد النجاة والبعد استعمل «عن» لدلالته على المجاوزة.

ثم إنّه ختم الكلام بقوله: «لا ولكن مقاديرٌ جرت وأمور». فهو قد تمنّى نجاة داره وبعدها عن الأهوال لكنّ قد حدث له مالم يكن يتمنّاه، وما لا تحمد عقباه.

إنّ الذي يُمعن النظر في هذا الكلام الأخير يرى أنّ الرجل قد حذف العامل في «وأمور»، إذ أصل الكلام «لا وأمورٌ جرت»، فهو استغنى عن تكرار العامل وما قد يعيب به النظم، واستغلّ معنى عطف النسق حيث أجزأه عن ذلك، وهذا قليل من كثير.

لقد أظهر الجرجاني عبد القاهر إعجابه بها في البيتين الأولين، فأنت لا ترى فيهما شيئاً غير الذي عهدته لك تجعله حسناً في النظم، وكلّ من معاني النحو كما ترى، وهكذا السبيل أبداً في كلّ حسن ومزية رأيتهما قد نسبتا إلى النظم، وفضل وشرف أحيل فيهما عليه.

انتهى.

بعض المصادر والمراجع:

١- دلائل الإعجاز، الجرجاني.

٢- الفكر اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، أحمد محمود سعيد أبو دنيا. مقال. www.aluKah.net 17/10/2010

المحاضرة السادسة

النظم وعلاقته بعلم المعاني

أدرك النحاة واللغويون الارتباط الحاصل بين علم النحو وعلم المعاني، وذلك من خلال حرصهم على أساليب العرب وطرائقهم في التعبير والمفاضلة بينها، وبيان مواطن الحسن والجمال فيها، ولم يخف على البلاغيين ما عرفوه من أمر هذه العلاقة بين العلمين فلقد سجلوا ذلك في التعريفات حيناً وفي عرض المادة حيناً آخر.

وقد فهموا أن لا تناقض حاصل بين علم النحو وعلم المعاني، بل إن الأسلوب يصبح رصيناً بقدر ما يكون التناغم بينهما أكبر وليس بينهما معاكسة في الاتجاه، ولا دلالة على تناقض بينهما بالضرورة، وذلك إنما يعني في نظر معظم الدارسين وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني - أن العلمين متكاملان بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر، فالنحو بغير المعاني جفاف قاحل، والمعاني بغير النحو أحلام طائفية ينأى بها الوهم عن رصانة المطابقة العرفية وينحاز إلى تزوات الذوق الفردي.

وقد تتجلى هذه العلاقة إذا علمنا أن علم المعاني هو ناتج عرضي لنظرية النظم التي وضعها عبد القاهر الجرجاني إذ يقرر أنه: «لا هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو...

---

(1) - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 49.

* - عبد القاهر الجرجاني أول من ربط بين النحو والبلاغة.

هذا، وللسكّاكي* فضل السبق في ترتيب علم المعاني ضمن أبواب البلاغة، وقد عرّف علم المعاني بأنه (تتبّع خواص تركيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق على ما يقتضي الحال ذكره)[1].

وعرّفه القزويني** بأنه (علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي يتطابق بها مقتضى الحال)[2]. وبهذا يكون القدر الجامع بين تعريفي السكاكي والقزويني هو غاية هذا العلم في مراعاة الكلام لمقتضيات الحال، فلا تكلم العالم بلغة الجاهل، ولا السوقي بلهجة البدوي، ولا تضع الظاهر موضع المضمر ولا المخاطب مكان المتكلم، ولا مَن حقه التعريف منكّرا، ولا مَن موقعه التقديم مؤخّرا. ولم يخرج أحد عن هذا التعريف إلى يوم الناس هذا.

وإذا كان الاشتلاف حاصلا بين علمي النحو والمعاني فلزمّ ثمة فرقا بينهما من حيث وظيفة كلّ منهما إذْ إن النحو يبدأ بالمفردات وينتهي إلى الجملة الواحدة، على حين يبدأ علم المعاني بالجملة الواحدة وقد يتخطاها إلى علاقتها بالجمل الأخرى في السياق الذي ترد فيه.

---

* قال ابن العماد في الشذرات عنه سنة ست وعشرين وستمائة (وفيها يوسف بن أبي بكر السكاكي. صاحب المفتاح. أخذ عن شيخ الإسلام محمود بن صاعد الحارثي وعن سديد ابن محمد الخياطي، وكان حنيفا، إماما كبيرا، عالما، بارعا، متبحرا في النحو والتصريف وعلم المعاني والبيان والعروض والشعر. أخذ عنه الكلام مختار بن محمود الزاهدي صاحب القنية قاله ابن كمال باشا في طبقاته. وانظر الشذرات. ج 7/ 215.

(1) - مفتاح العلوم، السكاكي، ص 490.

** قال ابن العماد عن سنة تسع وثلاثين وستمائة (وفيها قاضي قضاة الإقليمين جلال الدين محمد بن عبد الرحمان بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن إبراهيم بن علي ابن أحمد بن دُلَف بن أبي دُلَف العجلي القزويني ثم الدمشقي الشافعي. قال ابن قاضي شهبة: مولده بالموصل سنة ست وستين وستمائة. قال الذهبي: أفتى، ودرس، وناظر، وتخرّج به الأصحاب، وكان مليح الشكل، فصيحا، حسن الأخلاق، غزير العلم، وأصابه طرف فالجٍ مدة. وقال الأسنوي:... وإليه ينسب كتاب "الإيضاح" و"التلخيص" في علمي المعاني والبيان. ج 8.

(2) - الإيضاح، القزويني، ص 84.

أي أنّ النحو يهتم بالتحليل وعلم المعاني يهتم بالتركيب، وأنّ التحويبدأ بالمباني ليصل إلى غايته من المعاني. ويتضح ذلك في إعراب الجمل فالمبتدأ: (زيدٌ ضَرَبَ عَمْرًا)، والمعنى ضرب: فعل ماض، زيد: فاعل، عمرا: مفعول به. بينما يتجه علم المعاني اتجاها معاكسا إذ يبدأ من المعنى متجها صوب المبنى.

وفرق آخر بين العلمين هو أنّ النحويين أقاموا مباحثهم على أساس الأداء المثالي لتركيب الجملة، في حين يسعى البلاغيون باتجاه خرق هذه المثالية والعدول عنها في الأداء الفني. (فإذا كان النحوي يهتم بما يفيد أصل المعنى فإن البلاغي يبدأ منطقة حركته فيما يلي هذه الإفادة من عناصر جماليّة. وذلك طلبا للراحة من جفاف الصناعة، والوصول إلى حقل المعاني الذوقيّة والخلجات النفسية.[1]

* فائدة علم المعاني: نستفيد من علم المعاني أمرا مهما هو أنّه لا ترادف بين الجمل، بل لكل ترتيب دلالة خاصة، وفيه معنى ليس في الآخر، وإن أي تغيير يطرأ على التركيب بتقديم أو تأخير، أو حذف أو ذكر، أو تأكيد أو تركه يؤدي إلى تغيير في المعنى.

* مكانة علم المعاني بين العلوم: أما مكانته بين العلوم الأخرى فهو ألصقها بالقرآن الكريم وبه عرف إعجازه.. بل هو علم يشتمل عليه علم النحو أو الصرف أو البديع مثلا، فلا يعتد فيه بكلام لم يراع فيه الوجه الصحيح لبناء الكلمة في الصرف، ولا بكلام نضب فيه ما حقّه الرفع، ولا بصورة بديع لم يحسن صاحبها التأتي إليها.

إن ثمرة هذا العلم هو الوقوف على الأسرار التي يرتفع بها شأن الكلام ويفضل بعضه بعضا، ومعرفة إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن الوصف، ولطف الإيجاز، وجودة السبك، ومراعاة التركيب، وجزالة الكلمات، وعذوبة الألفاظ ومحاسن الكلام، والوقوف على بديع القول وأسرار البلاغة وأسباب الفصاحة وغير ذلك مما يساعد على تنمية الذوق[2]

---

(1) - حدود المصطلح البلاغي (دراسة نقدية)، عكاب طرهون علي الحياني - جامعة الأنبار.

(2) - ينظر:

www.uae7.com

البيان في عند الدارس، وتزويده بآلات وتعريفه بمقامات.

وأما أبرز مباحث علم المعاني فنوردها على النحو التالي:

الخبر وأضربه، والإنشاء وفنونه، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والذكر والحذف، والإطلاق والتقييد، والقصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة.

- التقديم والتأخير.

- تعريف التقديم والتأخير:

عندما نسمع التقديم والتأخير نعرف أننا بصدد الحديث عن ترتيب عناصر الجملة العربية.

والجملة العربية إما فعلية وإما اسمية، فإذا كانت فعلية فترتيب عناصرها واضح، والفعل هو المقدّم في الترتيب على الأصل. أما إذا كانت اسمية واستوى طرفا التركيب وكانا معرفتين معًا، فقد اختُلف في أيهما يمكن أن تصدّر به الجملة، وأيهما تجعله خبرا، فأما النحويون فلم يتعرّضوا للتحديد، بل تركوا للمتكلّم الخيار، وأجازوا أن يكون كل منهما المبتدأ والثاني هو الخبر، ويُعرِبون المقدّم مبتدأ والمؤخّر خبرا، «لكنّ البلاغيين بحثوا الأمر بحثا فكريًا منطقيًا دقيقًا، ناظرين إلى حال المخاطَب، وما هو الأعرف لديه من ركني الإسناد اللذين هما من المعارف»[1].

ومن هنا يأتي التعريف الذي يعرّف به التقديم والتأخير وهو «مخالفة عناصر التركيب ترتيبها الأصلي في السياق، فيتقدّم ما الأصل فيه أن يتأخّر ويتأخّر ما الأصل فيه أن يتقدّم. والحاكم للترتيب الأصلي بين عنصرين يختلف إذا كان الترتيب لازمًا أو غير لازم، فهو في الترتيب اللازم (الرتبة المحفوظة) حاكم صناعي نحوي، أما في غير اللازم (الرتبة غير المحفوظة)، فيكاد يكون شيئًا غير محدّد، ولكن هناك أسبابًا عامة قد تفسّر ذلك الترتيب»[2].

---

(1) - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، 1/356، نقلا عن: شبكة صوت العربية: www.voiceofarabic.net

(2) ظاهرة التقديم والتأخير في النحو العربي، صالح الشاعر، مقال للكتروني نقلا عن شبكة صوت العربية.

قال الجرجاني في دلائل الإعجاز[1]:

فصل

«القول في التقديم والتأخير»

98- هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدّم فيه شيء، وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان.

99- وَاعْلَمْ أن تقديم الشيء على وجهين:

تقديم يقال إنّه على نيّة التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل كقولك: «منطلق زيد» و«ضرب عمرًا زيدٌ»، معلوم أن «منطلق» و«عمرًا» لم يخرجا بالتقديم عمّا كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعا بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوبا من أجله، كما يكون إذا أخرت.

وتقديم لا على نيّة التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبره، فتقدّم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق، حيث تقول مرة: «زيدٌ المنطلقُ» وأخرى «المنطلقُ زيدٌ»، فأنت في هذا لم تقدم «المنطلق» على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخّر «زيدا» على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرا.

وأعلم من هذا قولنا: «ضربت زيدًا» و«زيدٌ ضربته» لم تقدّم

---

(1)- دلائل الإعجاز، الجرجاني، تح: محمود أحمد شاكر. ص: 106-107.

«زَيْدًا» على أن يكون مفعولا منصوبا بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعه بالابتداء، وتشغل الفعل بضميره، وتجعله في موضع الخبر له.
وإذ قد عرفت هذا التقسيم، فلي في أتبعه جملة من الشرح.

100- وَاعْلَمْ أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول[1] «كأنّهم يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم بيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم». ولم يذكر في ذلك مثالاً.

وقال النحويّون: إنّ معنى ذلك أنّه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يبالون مَن أوقعه، كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجيّ يخرج فيعيث ويفسد، ويكثر به الأذى، أنّهم يريدون قتله ولا يبالون مَنْ كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء. فإذا قُتِل، وأراد مريدٌ الإخبارَ بذلك، فإنّه يقدّم ذكر الخارجيّ فيقول: «قتلَ الخارجيَّ زيدٌ»، ولا يقول: «قتلَ زيدٌ الخارجيَّ»؛ لأنّه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أنّ القاتلَ له «زيدٌ» جدوى وفائدة، فيعنيهم ذكره ويهمّهم ويتّصل بمسرّتهم ويعلمُ من حالهم أنّ الذي هم متوقعون له ومتطلّعون إليه متى يكون، وقوعُ القتل بالخارجيّ المُفسِد، وأنّهم قد كُفُوا شرّه وتخلّصوا منه.

ثمّ قالوا: فلو كان رجل ليس له بأسٌ ولا يُقدَّرُ فيه أنّه يَقتُلُ، فقتلَ رجلًا، وأراد المُخبِرُ أن يُخبِر بذلك، فإنّه يقدّم ذكر القاتل فيقول: «قتلَ زيدٌ رجلًا»، ذاك لأنّ الذي يعنيه ويَعْنَى الناس من شأن هذا القتل، طرافتُهُ وموضع الندرة فيه، وبعدُهُ كان من الظنّ. ومعلوم أنّه لم يكن نادرا وبعيدا من حيث كان واقعا بالذي وقع به، ولكن من حيث كان واقعا من الذي وقع منه.

فهذا جيّد بالغ، إلاّ أنّ الشأن في أنّه ينبغي أن يُعرَف في كلّ شيء قُدِّم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى، ويُفسَّر وجه العناية فيه هذا التفسير.

---

(1) - يعني به شيخ النحو سيبويه، والنص في الكتاب: 1/ 14-15.
- انظر: دلائل الإعجاز، ص 107-108.

101 - وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال: «إنّه قدم للعناية، ولأنّ ذكره أهمّ»، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهمّ؟ ولتخيّلهم ذلك، قد صغر أمر «التقديم والتأخير» في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه، حتّى إنك لترى أكثرهم يرى تتبّعه والنظر فيه ضرباً من التكلّف. ولم تر ظنّاً أزرى[1] على صاحبه من هذا وشبهه.

102 - وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في «الحذف والتكرار»، و«الإظهار والإضمار»، و«الفصل والوصل»، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه إلّا نظرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه لم يضرك.

لا جرم[2] أنّ ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها، وصدّ بأوجههم عن الجهة التي هي فيها، والشقّ الذي يجويها. والمداخل التي تدخل منها الآفة على الناس في شأن العلم، ويبلغ الشيطان مراده منهم في الصدّ عن طلبه وإحراز فضيلته كثيرة وهذه من أعجبها، إن وجدت متعجّباً.

وليت شعري، إن كانت هذه أموراً هينةً، وكان المدى فيها قريباً، والجدى[3] يسيراً، من أين كان نظم أشرف من نظم؟ وبم عظم التفاوت، واشتد التباين، وترقى الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يقهر أعناق الجبابرة؟ أو ههنا أمور أخر خيل في المزية عليها، وتجعل الإعجاز كان بها، فتكون تلك الحوالة لنا عذراً في ترك النظر في هذه التي معنا، والإعراض عنها، وقلّة المبالاة بها؟ أوليس هذا التهاون، إن نظر العاقل خيانة منه لعقله ودينه، ودخولاً فيما يزري بذي الخطر، ويغضّ من قدر ذوي القدر؟ وهل يكون أصنع رأياً، وأبعد من حسن التدبّر منك إذ أهمّك أن تعرف الوجوه في: «أأنذرتهم» والإمالة في «رأى القمر» وتعرف «الصراط» و«الزراط» وأشباه ذلك ممّا لا يعدو علمك فيه اللفظ وجرس الصوت، ولا يمتعك إن لم تعلمه بلاغةً ولا يدفعك عن بيان، ولا يدخل عليك شكّاً، ولا يغلق دونك باب معرفة، ولا يفضي بك إلى

---

(1) - أزرى: أردى على صاحبه.

(2) - لا جرم: لا بدّ، لا محالة...

(3) - الجدى: النفع.

• ينظر «دلائل الإعجاز» 108-109-110. الحاشية.

إلى تحريف وتبديل، وإلى الخطأ في تأويل، وإلى ما يعظم فيه المعاب عليك، ويطيل لسان القادح فيك، ولا يعنيك ولا يهمك أن تعرف ما إذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك، وحصلت فيما هنالك، وكان أكثر كلامك في التفسير، وحيث تخوض في التأويل، كلام من لا يبني الشيء على أصله، ولا يأخذه من مأخذه، ومن ثم وقع في الفاحش من الخطأ الذي يبقى عاره. وتشنع آثاره. ونسأل الله العصمة من الزلل، والتوفيق لما هو أقرب إلى رضاه من القول والعمل.

104- وهذه مسائل لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بين تقديم ما قدم فيها وترك تقديمه.

ومن أبين شيء في ذلك «الاستفهام بالهمزة»، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: «أفعلت؟»، فبدأت بالفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده.

وإذا قلت: «أأنت فعلت؟»، فبدأت بالاسم، كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه. ومثال ذلك أن تقول: «أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟»، «أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟»، «أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟»، تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه، لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه مجوز أن يكون قد كان، وأن يكون لم يكن.

وتقول: «أأنت بنيت هذه الدار؟»، «أأنت قلت هذا الشعر؟»، «أأنت كتبت هذا الكتاب؟»، فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذاك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان. كيف؟ وقد أشرت إلى الدار مبنية، والشعر مقولاً، والكتاب مكتوباً، وإنما شككت في الفاعل من هو؟

فهذا من الفرق لا يدفعه دافع، ولا يشك فيه شاك، ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر.

- ينظر دلائل الإعجاز ١١٠-١١١-١١٢.

فلو قلتَ : «أأنتَ بنيتَ الدار التي كنتَ على أن تبنيها؟»، «أأنتَ قلتَ الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟»، «أأنتَ فرغتَ من الكتاب الذي كنتَ تكتبه؟»، خرجتَ من كلام الناس. وكذلك لو قلتَ: «أبنيتَ هذه الدار؟»، «أقلتَ هذا الشعر؟»، «أكتبتَ هذا الكتاب؟» قلتَ ما ليس يقول. ذاك لفساد أن تقول في الشيء المشاهد الذي هو نُصْب عينيك أموجود أم لا؟[8]

---

(8)- يُنظر: دلائل الإعجاز، ص 112.

انتهى.

* بعض المصادر والمراجع:

- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي.
- مفتاح العلوم، السكاكي.
- الإيضاح، القزويني.
- حدود المصطلح البلاغي (دراسة نقدية)، عكاب طهور علي الحياني، مقال، جامعة الأنبار، العراق. www.uae 7. com
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، 356/1. شبكة صوت العربية. www.voice of arabic. net
- ظاهرة التقديم والتأخير في النحو العربي، صالح الشاعر، مقال إلكتروني نقلا عن شبكة صوت العربية.

المحاضرة السابعة
النظم وعلاقته بعلم البيان

أولا: علم البيان

البيان في اللغة معناه: الظهور والوضوح والإفصاح، وما تبيّن به الشيء من الدلالة وغيرها؛ تقول: بَانَ الشَّيْءُ بَيَانًا: اتّضح، فهو بيّن والجمع أبْيِنَاء، والبيان الفصاحة واللّسَن، وكلامٌ بَيِّن: فَصِيح، وفلانٌ أبْيَنُ من فلان، أفصحُ وأوضحُ كلاما منه، والبيان: الإفصاح مع ذكاء، والبيان إظهار المقصود بأدلّ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللّسَن، وأصله الكشف والظهور.

ووردت كلمة البيان بدلالاتها اللغوية في آيات القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران/138.

وقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ الرحمان/1-4.

جعل التعليم تميز الإنسان عن كثير من خلقه، وهيأه تأهيلا مبينا، يستطيع أن يُعبّر عمّا يخطر بخاطره، ويجول في نفسه من المعاني، فيوصلها إلى غيره من البشر، ويتلقاها الغير عنه فيتم التفاهم.

ثم أخذت كلمة البيان دلالاتها الاصطلاحية في ما بعد فأصبح البيان أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة: البيان والمعاني والبديع.

وقد تداخل علم البيان بأدى الأمر مع علم المعاني، واستوعب بعض مباحثه لاحقا، وشمل علوم البلاغة كلها بعض الأحيان

وقد عرّف البيان مجموعة من الأدباء:

يقول الجاحظ: هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ، وهو اسم جامع لكلّ شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع؛ إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

وقد عرّفه الخطيب القزويني بقوله: علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

ثم هو موضوعاته: التشبيه، الاستعارة، الكناية، المجاز.

ثانيا: ترجيح الكناية والاستعارة والتمثيل على الحقيقة

63- قد أجمع الجميع على أنّ «الكناية» أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنّ للاستعارة مزيّةً وفضلا، وأنّ المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة، إلاّ أنّ ذلك، وإن كان معلومًا على الجملة، فإنه لا تطمئنّ نفسُ العاقل في كلّ ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يُغلْغِلَ الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة. فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت: «هو طويل النجاد وهو جمّ الرماد»، كان أبهى لمعناك وأنبلَ من أن تدع الكناية وتصرّح بالذي تريد. وكذا إذا قلت: «رأيتُ أسدًا»، كان لكلامك مزيّةٌ لا تكون إذا قلتَ: رأيتُ رجلاً هو والأسدُ سواء، في معنى الشجاعة وفي قوة القلب وشدة البطش وأشباه ذلك. وإذا قلت: «بلغني أنك تقدّمُ رجلا وتؤخّرُ أخرى» كان أوقع من صريحك الذي هو قولك: بلغني أنك تتردّد في أمرك، وأنك في ذلك كمَن يقول: أخرُج ولا أخرُج، ولم تقطع على ذلك حتى لا يجد شك فيه فإنما تشكّ أنت نفسك تمام السكون، إذا عرفنا السبب في ذلك والعلّة.

64- اعلم أنّ سبيلك أولا أن تعلم ليست المزيّة التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدّعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلّم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته له، وتقريره إياها.

تفسير هذا: أنْ ليس المعنى إذا قلنا: «إنّ الكناية أبلغ من التصريح»، أنك لمّا كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد. فليست المزيّة في قولهم: «جمّ الرماد»، أنه دلّ على قِرًى أكثر، بل أنك أثبتّ له القِرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجابا هو أشدّ، وادّعيته دعوى أنت بها أنطقُ، وبصحتها أوثقُ.

وكذلك ليست المزيّة التي تراها لقولك: «رأيتُ أسدًا»، على قولك: رأيتُ رجلا لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته = أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسدَ، بل أن أفدت تأكيدا وتشديدا وقوة في إثباتك له هذه المساواة، وفي تقريرك لها. فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته، بل في إيجابه والحكم به.

65- وهكذا قياس التمثيل (التشبيه)، ترى المزية أبدا في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه. فإذا سمعتهم يقولون: إنّ من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نُبلا وفضلا، وتوجب لها شرفا، وأن تفخّمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين، فلم تهم لا يريدون الشجاعة والقِرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون إثبات معاني هذه الكلم ليتوصّل بتشبيه له ويُخبَر بها عنه.

67- اعلم أنّ من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد. فلا ترى أنك تجد في الاستعارة العاميّ المبتذل كقولنا: «لا رأيت أسدًا، ووردت بحرا، ولقيت بدرًا» = والخاصيّ النادرَ الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه أفراد الرجال كقوله: «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ»

أراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة، وكانت سرعة في ليّن وسلاسة، حتى كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها.

68- ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللطف وعلوّ الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الحَيِّ حِينَ دَعَا ∴ أَنْصَارَهُ، بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

أراد أنه مطاع في الحيّ، وأنهم يُسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب، إلا أتوه وكثروا عليه، وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجيء من ههنا وههنا، وتنصبّ من هذا المسيل وذلك، حتى يَقْعَمّ بها الوادي ويطفح منها.

69- ومن بديع الاستعارة وتأدّيها، إلا أن جهة الغرابة فيه غير جهتها في هذا، قول يزيد بن مَسلمة بن عبد الملك يصف فرسه، وأنه مؤدّب، وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه في قَرَبُوس سَرجه، وقف مكانه إلى أن يعود إليه:

عَوَّدْتُهُ فِيمَا أَزُورُ حَبَائِبِي ∴ إِهْمَالَهُ، وَكَذَاكَ كُلُّ مُخَاطِرِ

وَإِذَا احْتَبَى قَرَبُوسُهُ بِعِنَانِهِ ∴ عَلَكَ الشَّكِيمَ إِلَى انْصِرَافِ الزَّائِرِ

فالغرابة ههنا في الشبه نفسه، وفي أن استدرك هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج، كالهيئة في موضع الثوب من ركبة المحتبي.

(41)

70- وليست الغرابة في قوله: «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْبَطِيِّ الْأَبَاطِحُ».
على هذه الجملة، وذلك أنّه لم يُغرِبْ لأن جعل البطيّ في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصيّة أفادها بأن جعل «سَالَ» فعلاً للأباطح، ثم عدّاه بالباء، بأن أدخل الأعناق في البين: فقال «بأعناق البطيّ»، ولم يقل: «بالبطيّ»، ولو قال: «سَالَتْ البطيُّ في الأباطح»، لم يكن شيئاً.
وكذلك الغرابة في البيت الآخر، ليس في مطلق معنى «سال»، ولكن في تعديته بعلى والباء، وبأن جعله فعلاً لقوله «لا يُشَعَّبُ الحيّ»، ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسن. وهذا موضع يَدِقّ الكلامُ فيه.

71- وهذه أشياءُ من هذا القبيل:

اليَوْمُ يَوْمَانِ مُذْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِي، ✣ نَفْسِي فِدَاؤُكَ، مَا ذَنْبِي فَأَعْتَذِرُ
أُمْسِي وَأُصْبِحُ لَا أَلْقَاكَ وَاحَزَنَا، ✣ لَقَدْ تَأَنَّقَ فِي مَكْرُوهِيَ الْقَدَرُ

. يُنظر دلائل الإعجاز، الجرجاني، تح محمود محمد شاكر، ص 75-76.
في العربيّة بسط المعنى يستلزم قِلّة اللفظ.

إثبات الفضل للنظم عن طريق العكس «القلب»

ومن طريق المخالفة:

يقول عبد القاهر الجرجاني: هذه جملة لا تزداد فيها نظرا، إلا ازددت لها تصوّرا، وازددت عندك صحة، وازددت بها ثقة. وليس من أحد تحرّكه لأن يقول في أمر «النظم» شيئا، إلا وجدته قد اعترف لك بها أو ببعضها، ووافق فيها درى ذلك أو لم يدر. ويكفيك أنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه حيث ذكروا فساد «النظم»، فليس من أحد يخالف في نحو قول الفرزدق:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا ∴ أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

وقول هند: أبو العلاء - في رثاء الوليد - اجتماع الباءات

لَأُنْكِحَنَّ بَبَّهُ مُكْرَهَةً مُحَبَّبَهْ. يُحِبُّ أَهْلَ الْكَعْبَهْ

جَارِيَةً خِدَبَّبَهْ

إِنْ شَكْلِي وَإِنَّ شَكْلَكْ شَتَّى ∴ فَالْزَمِي الْحَقَّ وَاخْفِضِي تَبْيَضِّي

(العدواني). - اجتماع العتادات.

وفي تظاهر ذلك مما وصفوه بفساد النظم، وعابوه من جهة سوء التأليف، أنّ الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، ومما لا يسوغ ولا يصحّ على أصول هذا العلم.

كان أمهرها عشرين بعيرا - بنات لبون

قال الأعرابيّ:

لأجعلنّ لابنة عمّ قنّا ∴ من أين عشرون لها من أنّى

أإبلي تأكلها مصنّا ∴ خافق سنّ ومشيلا ستّا

- اجتماع التونات.